



الرافعي

أديب الإسلام.. والمسلمين

■ في صباح الإثنين ١٠ مايو (أيار) ١٩٣٧م فقدت الأمة الإسلامية ركناً من أركان الأدب العربي . واديباً من أبلغ من عرفت من أدبائها . وكتاباً في الطبقة الأولى من كتاب العربية منذ أقدم عصورها . ذلك هو مصطفى صادق الرافعي رحمه الله . فقد عاش هذا الرجل في فترة قاسية بين دعاوى التجديد . ومحاولة سلخ هذه الأمة عن هويتها . لكنه أتى على نفسه أن يجعل من قلمه سلاحاً يذود به عن هذه اللغة ويحمي ذمارها . من أجل أن يسود اللسان العربي على هذه العجمة المستعربة . وأن يعيد إلى الجملة القرآنية مكانتها . فكان المدافع الأول عن العربية والإسلام . وعاش ينهب هذه الأمة إلى حقائق وجودها . ومفومات انتماؤها واصلتها ■■

بداية الرافعي وانطلاقه ..

بدأ الرافعي حياته الأدبية شاعراً وكان عمره لا يتجاوز التاسعة عشرة من عمره . وأخذ ينشر شعره ومقالاته في المجلات التي كانت تصدر آنذاك . وقد أخرج الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٠م ثم تلاه الجزء الثاني والثالث .. ومن هنا دخل الرافعي إلى مجال الشهرة الأدبية . وقُرَّظه الشيخ ناصيف اليازجي في مجلة الضياء سنة ١٩٠٣م .^(١)

[٢]

ثم أخرج الرافعي بعد ذلك « ديوان الغفلات سنة ١٩٠٨م . ثم دلف بعد ذلك إلى الكتابات الأدبية سواء النقدية أو الإبداعية فكتب في « تاريخ آداب العرب » و« عجاز القرآن والبلاغة النبوية »

كان أبوه قاضياً شرعياً بمحكمة طنطا التي قضى فيها الرافعي معظم حياته إلى أن وافاه أجله . وعرف من - أبويه الشيخ عبدالرازق الرافعي أنه كان رجلاً ورعاً له صلابة في الدين وبشدة في الحق .^(٢) وهذه الشدة حُرِّف بها الرافعي فيما بعد في نقده ودفاعه عن اللغة والدين . وهكذا نجد أصالة البيت الذي انتبخت منه أصالة العرق والدم . وكانت أول تعاليم الرافعي في بيته حيث تعلم الإسلام وأدابه . كما أنه حفظ شيئاً من القرآن ودخل المدرسة ونال الشهادة الابتدائية ثم مرض بعدها مرضه الذي فقد فيه السمع بإحدى أذنيه . وظل سمعه يقل في الأخرى وما تعدى الثلاثين إلا وكان أصم لا يسمع شيئاً بكتنا أذنيه . وفي عام ١٨٩٩م عين الرافعي كاتباً بمحكمة طنطا الشرعية . وظل ينتقل من محكمة إلى أخرى حتى استقر به المقام في محكمة طنطا الأهلية التي ظل يعمل بها إلى يومه الأخير .

ولقد حاول المبتلون - أعداء العربية - قديماً وحديثاً طمس معالم هذه الشخصية . ومحو آثارها وإهالة التراب عليها . وما هذه إلا محاولة سريعة منا نستعرض فيها بعض الجوانب من حياة الرجل وأدبه في يوم ذكرناه . وقد يكون مصطفى كامل صادقاً حين قال :

« سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان »^(٣)

[١]

نشأته وحياته :

الرافعي سوري الأصل . مصري المولد . إسلامي الوطن والعقيدة . ولد في شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٠م من أسرة عريقة . يتصل نسبه بعمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه .^(٤)

وكتاب المساكين . وأضاف إلى العربية فناً جديداً من فنون النثر لم يسبقه إليه أحد وذلك من خلال كتبه الثلاثة : « وسائل الإحزان » ، و « السحاب الأحمر » ، و « أوراق الورد » . وفي مجال النثر أخرج الرافعي كتابيه ، تحت راية القرآن ، والذي انتقد فيه طه حسين وكتابه ، في الأدب الجاهلي ، و « وعلى السفود » ، الذي انتقد فيه العقاد وكان آخر ما كتب الرافعي هو ما جمعه من مقالاته في كتابه « وحي القلم » ، الذي يعد من أروع ما أخرج وإن كان معظم ما أخرجه رائعاً .

عمق ثقافته وتأثره بالتراث :

تحددت ثقافة الرافعي منذ نعومة أظفاره وبمذنب نشأته في بيت أبيه على العلم الذي علمه أبوه إياه . ورغم أن الرافعي درس الفرنسية أثناء دراسته في المدرسة الابتدائية إلا أنها لم تجد عليه إلا قليلاً أو أقل من القليل^(١٠) . وأخذ الرافعي يمني ثقافته بعصاميته وقراءاته التي لم تنقطع طوال حياته والتي وضع كتب التراث أساسها ومحورها بالإضافة إلى بعض القراءات المترجمة . ولكن كان التراث هو الأساس عنده حتى إنه استطاع - بفضل الله أن يكتب كتابه « تاريخ آداب العرب » من وحي ذاكرته التي جمع فيها شتات قراءاته .. وهذا ما أشار إليه سعيد العريان في مقدمته للرافعي : « ... وهمت أن أسأل الرافعي ولكنني لم أفعل . وهمت أن أعرف بنفسني فلم أبلغ . ثم عزوت ذلك إلى ذاكرة الرافعي وسرعة حفظه فقلت : متفرقات قد عرفها في سنين متباعدة فوعتها حافظته . فلما هم أن يؤلف كتابه أمدت الذاكرة بما وعث منها . وكان مستحيلاً عليه أن يجمعها لو لم تجتمع له من ذات نفسها^(١١) .

هكذا وصل الرافعي بعمق ثقافته في التراث أن يكتب كتاباً من ذاكرته يقع في ثلاثة مجلدات . وما هو إلا توفيق الله له .. أعانه على أن يبعث روح الأدب في حياة هذه الأمة من جديد . ولقد وضع الرافعي القرآن الكريم والبلاغة النبوية في المخرطة الأولى والمرتبعة العالية في ثقافته وفكره . وعاش حياته من أجل سمو هذه اللغة وارتقاء هذه الأمة بتراثها . يتضح هذا من خلال رسائله وهو يقول لأحدهم في دعابة وطرفة : « ... وما أرى أحداً يفلح في الكتابة والتأليف إلا إذا حكم على نفسه حكماً نافذاً بالأشغال الشاقة الأدبية كما تحكم المحاكم بالأشغال الشاقة البدنية .. فأحكم على نفسي بالأشغال الشاقة سنتين أو ثلاثاً في سجن الجاحظ . أو ابن

المفجع . أو غيرهما وهبها كانت في أبي زعبل أو طرة^(١٢) .

ومن هنا نلمس كيف كان حريصاً على أن تكون كتب التراث في مقدمة ثقافة الدارسين للغة والأدب حتى يرتكز الأديب على أدب أصيل وتراث زاخر يحميه من كل الأفكار الوافدة التي قد تعصف به وتجعل منه لساناً للعجمة التي تأثر بها . كما حدث لكثرة ممن انسلخوا من أدبهم وتراثهم وحاولوا أن ينالوا من هذه اللغة ومن أصالتها أمثال سعيد عقل . وطه حسين . وسلامة موسى وغيرهم .

[٣]

وقد وقف الرافعي لأصحاب هذه الدعوة بالمرصاد . وقامت بينه وبينهم معارك أدبية كثيرة خاضها الرافعي مدافعاً عن العربية والإسلام دفاع المستميت لا يعبأ بتناقض أحد . ولا تعلق أحد . فكان قلعه سيقاً يتأرا على كل هؤلاء .

معارك الرافعي الأدبية :

لقد عاش الرافعي في عصر كثر فيه أديباء التجديد ونبذ القديم . ووقف الرافعي وحده في الميدان مدافعاً يستند إلى ربه وما وهبه من علم . فكان يبارز كل من في الساحة . وكانت له دائماً الغلبة والسطوة رغم أنه كان يعيش في طنطا بعيداً عن أضواء الصحافة والمجلات الكثيرة التي كان يسيطر عليها أمثال هؤلاء . وكان يعتمد على مرتبه البسيط الذي كان يتقاضاه من المحكمة الأهلية التي كان يعمل بها . لذلك نجده لم يناقض في كتابته ولم يراء لأنه لم يعتمد على منصب ولا على مصلحة إنما كان يبني رضا ربه . في حين أن العقاد قد اشترط على « جريدة مصر » أن يعمل بها عاماً واحداً يتقاضى عنه مبلغ ألف جنيه^(١٣) .

فقد كان الرافعي بعيداً عن كل هذا يكتب - كما أشار في كثير من كتاباته - لأن ضميره ودينه يفرضان عليه ذلك . ومن هنا كانت المعارك التي خاضها الرافعي مع طه حسين . والعقاد . وسلامة موسى . وزكي مبارك وعبد الله عفيفي . وإن كانت معاركه مع العقاد . وطه حسين من أبرز تلك المعارك . ورغم أنه أخذ عليه أنه كانت له بعض المآرب الشخصية في بعض المعارك إلا أن معنمها إنما كان من منطلق مصلحة الدين واللغة وتلك المعارك التي أسس بها الرافعي منهجه النقدي من خلال أبرز كتبه النقدية . تحت راية القرآن . و « على السفود » .

النقد عند الرافعي ...

كانت للرافعي تجربة واعتماد بالنقد عُرفت من خلال نقده اللاذع . فقد كان رحمه الله لا يعرف المداراة ولا النفاق . بل كان « ناقداً عنيفاً حديد اللسان . وكان فيه حرص على اللغة من جهة الحرص على الدين^(١٤) . وكان يؤمن . بانك لا تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثله في اللغة^(١٥) . فكان بذلك ناقداً حاد اللسان يغار على لغته وأدبه مثلما يغار على عرضه . فكان يضرب كل من تطاول عليها ولا يخشى في الله لومة لائم . فهو يقول في مقدمة كتابه « تحت راية القرآن » مبيناً منهجه . إنه يبغى سمو الفكرة في نقده قبل أن يتناول الشخص بعينه . فيقول : « إننا في هذا الكتاب إنما نعمل على إسقاط فكرة خاطئة . وإذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه . ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء . لا جهلنا من جهله بلطف منه . ولا معرفتنا من تعرفه نبالغ فيه^(١٦) .

إننا نستطيع أن نقول إن الرافعي بهذه الكلمات الموجزة قد حدد منهجه في النقد ببساطة ووضوح وعدم مداراة أو نفاق أحد ! لأن الشخص عزيز عنده بعبارة فكرته . مذموم عنده إذا تعارضت مع الدين واللغة وأصالتهما . فهل هناك منهج نقدي أرقى من هذا المنهج^(١٧) ؟

هذا ولقد كانت بدايات النقد عند الرافعي بعض المقالات التي كان ينشرها في المجلات والجرائد التي كانت تنتشر في عصره ومن أشهرها « مقالة في النربا عن شعراء العصر سنة ١٩٠٥ م^(١٨) . و « مقال نشره في الجريدة يحمل فيه على الجامعة وعلى أسانذتها وعلى منهج الأدب فيها^(١٩) » وغيرها من المقالات الأخرى التي كانت بينه وبين غيره من معاصريه ممن قامت بينه وبينهم معارك أدبية . وكان من أبرز نقده كتابه « تحت راية القرآن » و « على السفود » . وقد انتقد طه حسين ومنهجه في كتابه « الشعر الجاهلي » في كتابه الأول وانتقد العقاد في كتابه الثاني .

كما أننا نجد أيضاً في رسائله لأبي رية بعض السمات النقدية التي تساعد على إبراز هذا الجانب . وكان الرافعي . ينقد المعاني والألفاظ من ناحية مستوى تاليفها والابتكار فيها . وينقد التكرار القبيح في الألفاظ والمعاني كما كان ينقد اضطراب القوافي ونقل الألفاظ^(٢٠) . وقد كان الرافعي عنيفاً على طه حسين



■ سلامة موسى



■ سعيد عقل



■ طه حسين ..
شازله الرافعي
تحت راية القرآن
فكانت المعركة
حامية
الوطيس ■

■ النبل من المصحى والدعوة إلى العامية

دفاعي . فالرافعي هو الرافعي . ولكنها تذكرة لهذه الأمة . بأن هناك ادبياً يحاول أعداء الدين واللغة أن يهولوا عليه التراب وأن يبعده عن مجال الدراسات والأبحاث التي توفيه حقه إلى الآن لقلتها وتندرتها . فهل كان الرافعي من الهوان إلى هذا الحد ؟ أن يشاء معظم مؤرخي الأدب الحديث وزعمائه . وأن يغفلوا عنه فلا يتناولوه بالمدح ولا حتى بالمذمة !

أي إنصاف هذا وأي عدل .. وأي وفاء ؟ هل يلقي الرافعي في زكراه مثلما يلقي العقاد وطه حسين وغيرهما ممن عاصروه وعاشوا معه ؟

إنها حقاً ليست إلا محاولة خبيثة لإهالة التراب على هذا الرجل وعلى أدبه . فبما من تغارون على العربية والإسلام . يا أيها الأدياء المخلصون في هذه الأمة من أقصاهما إلى أقصاهما .. إن هناك ادبياً عاش مدافعاً عن العربية والإسلام طيلة حياته ولم يجد من أمته إلا التجاهل والتناسي غمطاً لحقه ومحاولة لطمس معالم أدبه اسمه مصطفى صادق الرافعي .. فهل يجد من يذكره ويشيد بأدبه . ويقبل على دراسته . والاستفادة منه . ويعرف له حقه بالبر والوفاء وحسن الدعاء ؟

هوامش ومراجع :

- (١) الرافعي ومي . عبد السلام هاشم ص ٥ .
- (٢) حياة الرافعي . سعيد العريان ص ٦٤ .
- (٣) المصدر السابق نفسه .
- (٤) الرافعي ومي ص ٥ .
- (٥) حياة الرافعي ص ٢٢ .
- (٦) تزيح آداب العرب ج ٣ ص ٨ .
- (٧) رسائل الرافعي ص ٥٤ .
- (٨) المصدر السابق ص ١٩٠ .
- (٩) حياة الرافعي ص ٤٨ .
- (١٠) المصدر السابق ص ١٨ .
- (١١) تحت راية القرآن ص ٥ .
- (١٢) حياة الرافعي ص ١٤٩ .
- (١٣) نشأة النقد في مصر . عز الدين الأمين ص ١٢٧ .
- (١٤) المصدر السابق ص ١٣٣ .
- (١٥) الرافعي .. حياته وأدبه . حسين مخلوف ص ١٢٢ .
- (١٦) رسائل الرافعي ص ١٧٢ .
- (١٧) حياة الرافعي ص ٤٧ .
- (١٨) المصدر السابق ص ١٨٣ .

يعش في القرن العشرين وإنما عاش معاصراً للجاحظ وابن المقفع . وبديع الزمان . ولا تكون مغالين حينما نقول . إن هذه الألفاظ وتلك المعاني لا يقدر عليها إلا الرافعي . والدليل على ذلك أنه ما وجد أديب معاصره قارب أسلوبه أولغته أو فنته . وكان هذا دافعاً على وجود أعداء كثيرين له . بل لقد عاداه معظم أدياء عصره حقداً عليه وغيره منه . ولقد كان حقدهم عليه حياً وميتاً . فلم يذهب واحد من خصومه معزياً أهله فيه بعد وفاته . إلا رجل واحد كتب برقية إلى ولده هو الدكتور طه حسين (١٧) .

ثالثاً - القوة في الحق :

إن القوة في الحق سمة بارزة في أدب الرافعي وفي كتاباته . فرغم أن العقاد قال عنه يوماً : « إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتّاب العربية في صدر أيامها » (١٨) . إلا أن هذا لم يغفر للعقاد أن يتناول الرافعي بنقد مرير فيما بعد . حرصاً منه على فكرته . كما أننا لم نجد في كتاباته حداثة لأحد ولا خوفاً من أحد : لأنه لم يكن ينتظر عطايا أحد . ورغم أن عبادة عفيفي كان شاعر الملك . إلا أنه لم يسلم من قلم الرافعي . ورغم أن العقاد كان كاتب الوفد الأول . وكان الوفد بيده سلطة البطش والتنكيل إلا أن الرافعي لم يهبه ومضى في وضعه « على السفود » .

إن هذه هي أبرز السمات في أدب الرافعي - وهي تكفيه - وإن كانت هناك سمات أخرى كثيرة لا يتسع المقام لبيانها . من أجل هذه السمات وغيرها يحاولون طمس معالم هذا الرجل وأدبه .

لماذا يحاولون إهالة التراب ؟

وقد حاول ويحاول أعداء العربية والإسلام إهالة التراب على هذا الرجل وعلى أدبه . لأنه أثر الأصالة وأثر الإسلام وأثر المروءة . ولأنه لم يناقش في أدبه ولم يدهن ولم يبتغ إلا ارتقاء هذا الدين واللغة التي أنزل بها . ولأنه كان سيف الله في معركة تحداه فيها كل دعاة التجديد حياً وميتاً . وما نكتب عن الرافعي من منطلق

كما كان عنيفاً على العقاد . إلا أننا نأخذ عليه بعض العبارات القاسية التي كتبها للعقاد في كتابه « على السفود » والتي كان من الأولى أن يسمو قلم الرافعي عنها وعن الخوض فيها . وقد أشار الرافعي إلى كيفية سمو النقد فقال : « ليس النقد أن تأتي بالفاظ في مدح الكاتب والكتاب .. بل أن تبدأ ببيان قيمة الكتاب وما فيه من صواب أو خطأ ثم تأخذ بعد ذلك تصف الكاتب بما ينتجه البحث حتى لا يتخذ القراء » (١٩) .

من هنا نخلص إلى أن النقد عند الرافعي إنما ينبغي أن تكون هناك أصالة الفكرة وأصالة اللغة عند المبدع والسبر حسب الأصول النقدية الصحيحة . التي لا تخدع القارئ عند النقد . والرافعي في كل هذا إنما ينقد من خلال السمة الإسلامية التي تسيطر عليه .

[٤]

سمات أدب الرافعي . . .

من خلال ما سبق نستطيع أن نثبني أهم السمات والملامح التي تميز بها أدب الرافعي :

أولاً - الأصالة الإسلامية :

إن من أولى السمات وأبرزها وأوضحها في أدب الرافعي السمة الإسلامية . وهي تتضح منذ نشأته وحتى مماته . فبيته الذي نشأ فيه غرس فيه الروح الإسلامية . وظل ناشئاً معها محاطاً بها في كل أطوار حياته . وتلمس السمة الإسلامية في نقده وفي ثقافته . وفي إبداعه وفي حبه . ومما يدل على أنه كان يبغى وجه ربه في كتاباته ما قاله لأبي رية في إحدى رسائله - وقد فاز تشييده « ربنا إياك ندعو . (... فإنني أعلق أملاً كبيراً على غرس هذه المعاني في نفوس الفئدة المسلم) » (٢٠) . فالرجل لم يكتب لشهرة ولا مال ولا منصب . وإنما كان الإسلام هو دافعه وموجهه .

ثانياً - أصالة المعاني والألفاظ :

إن من يقرأ أدب الرافعي ويتمعن في سمو معانيه ودفقة ألفاظه يقول : إن هذا الرجل لم